2020

30.12.2019

إميل حبيبي
الآثار الكاملة

# إميل حبيبي

# أم الروبابيكيا

## هند الباقية في وادي النسناس

# اميل حبيبي

# أم الروبابيكيا

## هند الباقية في وادي النسناس




# أُم الروبابيكيا

## هند الباقية في وادي النسناس

مونودراما




إميل حبيبي
أم الروبابيكيا:
هند الباقية في وادي النسناس
مونودراما
( كتبت عام ١٩٩٢، ونشرت للمرّة الأولى في «مشارف»، أيلول ١٩٩٥ )

Emile Habiby
Oum el-Rubabikia

النّاشر: دار عربسك للنشر، حيفا
المحرّرة: سهام داوود
تصميم: شريف واكد



الموزع الرئيس: مكتبة كل شيء – حيفا

ساهم في إصدار هذه الأعمال مؤسسة عبد المحسن القطّان


P.O. Box 6370, Haifa 31063

المكان:

- غرفة وحيدة في بيت قديم في شارع الوادي - حيفا.
- في الطابق الثاني.
- مقعد خشبي طويل - الديوان - مفروش بالبياض وبالمساند.
- سرير حديديّ في الجانب الآخر، فوقه فراش مهفهف.
- كَراسٍ خيزرانية مقاعدها من القشّ المجدول.
- نافذة تطلّ على الشّارع.
- وفتحة في الجانب الآخر تُفضي إلى الدرج.
- مرتبة عليها عدد من الدواشك ذوات الأطراف المزركشة.
- رفّ فوقه أوانٍ نحاسية قديمة وجرس نحاسيّ وعدد من الكتب.
- دفّ ودربكة معلّقان على الحائط.
- أرض الغرفة مكسوّة بالبسط والجواعد.
- هند، أم الروبابيكيا، امرأة في الخمسين من عمرها، متربّعة على أرض الغرفة وقد فرشت أمامها لحافًا تتحسّسه بيدها.
- جهاز راديو عتيق تنطلق منه أُغنية فيروز: «زوروني كل سنة مرّة».

الزمـان:

- يوم من الأيام الأُولى من شهر أيلول ١٩٦٧.

*طرق على باب.*

مش قايمة!
بيتي بلا باب ومالي عتب على الغُيّاب.
عتبي على الحاضرين اللي نسيوني.

*الطرق مرة أُخرى.*

مش قايمة!
مش قايمة حتى أسمع دعستهم على الدرج.
طُبْ، طُبْ، طُبْ.
خَلّي الأمل في القلب محروس
ولا تشَفّي الناس بخيبة المنحوس.

*تتوجه نحو الجمهور.*

*عودة الطرق فتضحك.*

أُمك، يا هند، من قبلك
خفيفة مثل الفراشة.
طُبّ الجرّة على تِمّها

بتطلع البنت لإمّها.
طُبّ، طبّتك العافية يا ابن حارتنا
بَس طُبّ على ديرتنا
ولو مرّة يا ابن جيرتنا.

*تقوم متثاقلة.*

قومي، يا هند، بلاش لكاعة.

*تعود وتقعد. وتعدّ على اصابعها:*

أُقعدي، يا هند، بلاش مياعة.
حزيران. تموز. آب.
ثَلَث أشهر.
من يوم حرب حزيران وهم جايين.
ما ضلّ حدا غايب من أهل وادي النسناس
إلاّ أجا يطل على بيته.
إلاّ وْلادي!
حسني وحسن وحسنيّة.
التالتة تابتة، يا رَحْمَان!

حزيران. تموز. آب.
حلّهم ييجوا.
بس أولادي ما بطرقوا باب بيتهم
بيجروا جري!
التالتة تابتة، يا رَحْمَان!
قلبي بيقول لي ها اليوم مش متل كل يوم.
تأقوم أطلّ
بلكي الجاي، ها المرة، جاي يسأل عني
وتايه عن بيتي.
قلب الوليّة مثل الجرو
دغدغه شْوَيْ بِسَخْسِخْ

*يعود الطرق على الباب.*

*تزمع امرها، اخيراً، وتتّجه نحو النافذة.*

ألله يخزيكِ، يا هند، على هَبَلِك.
يا الله!
أموت هَبْلا ولا أموت بحسرتي.

*تطلّ من النافذة ثم تخاطب الجمهور.*

زيّ العادة وزيادة!
الطرق مش على باب بيتي.
من طرقة لطرقة رايحه جايه
مثل بيضات المغربل. (أو: مثل المكّوك)
ليه، يا حسرتي؟
لَئنُّو باب بيتي مفتوح ليل نهار؟
طَقّيت وأنا أستنّى.
مثل بير مَنْسي
أجمع مَيّة السطوح
وما فيه حدا شارب.

تغني:

«زوروني كل سنة مرّة. حرام، تنسوني بالمرّة، حرام».
طَبْ: زوروني في العمر مرّة.

*تشهق بشكل يتبيّن منه أنها كانت تبكي.*
*تُلقي نظرة من النافذة ثم تواجه الجمهور.*

باب مُغلق في وجهه واقف قدّامه لا يحول ولا يزول

مثل الحمار المحرن.
زلمة في عزّ رجوليته
طاقم ومهندم
جاي من بعيد زاير.
عَبْر الجسر من عمّان.
وربما أبعد.

*تُطل من النافذة.*

من وين جاي، يا ابن حارتنا؟
من الكويت والاّ أبعد؟
واقف ومنزّل راسه.
مِنْ مين مستحي؟!
إِنت مش الحرامي، يا رجل، إِنت المحروم.
لو يرفع راسه كنت عرفته.
يا هو، يا إِبنه
أو كنت عرفت خاله.
وكنت عرفته من لاحة خاله.
تُلتين الولد لخاله.
هيه، يا زلمة!

سايق عليك ألله ترفع راسك.
بتشوفني بشاورلك.
ما شفتلّيش اولادي؟
حسني وحسن وحسنية؟
بقدرش أعلّي صوتي.
عينهم عَلَيّ عشرة عشرة.
طُلّ، طُلّ.
على شمالك باب مفتوح على درج
وبآخر الدرج باب مفتوح على بيتي
وعندي شُربة ميّ أحلى من العسل
وحكايات وكنوز.
أنا هند!
هند السمرا بنت الفرّان
حتى زنوبا النورية كانت تغار من حلاوتي.
كنت أجمع حولي من الفتيان أكثر ممّا كان دفّ
زنوبا يجمع حولها.
بلكي وإحنا صغار كنّا جيران
وأُمك حمّلتني عجينكم
وإنت لحقتني.
بلكي حبِّيتني وإحنا صغار

والآ حبيتك.
بلكي كنت تعاكسني.
بلكي إنت الولد اللي دبّني على سعدان زنوبا
أو كنت إنت اللي كنت تقلِّد السعدان حتى نضحك:
يحرك راسه يمين وشمال.
يكاد يرفع راسه
بدأ يتحرك
يمشي خطوة نحو الشمال
أُخرى خطوة.

*تغني وتردِّد أُغنية صيد العصافير:*

«يا أبو عوّاد
مِنّك لَغاد
وادحل لها
وأُخرى دحلة
تِلقى الدودة
ها الممدودة
طول العصاة
يا أبو عواد

درجة درجة
تلقى الدودة
دودة طرية
بدها النّقّة
نُقّها نَقّة»
أكل ..

*تعود إلى الجمهور بحسرتها.*

لأ. فلِتْ.
عَدّى وراح.
غاب وما دري فينا.
وبقيت وحدي
أنا وكنوزي
وصبر أيوب.
شايفتكم.
عيونكم عَلَيّ عشرة عشرة
وقاعدين تستنّوا
من بعيد لبعيد قاعدين تراقبوا حركاتي وسكناتي.
ألله يلعن العاطل!

أكلتوني لحمة
ورمتوني عضمة.

*تذهب إلى السرير وهي تغنّي:*

«في البحر لم فُتّكم
في البرّ فُتّوني.
في التّبر لم بعتكم
بالتبن بعتوني»

*تركض نحو مقدمة المسرح.*

سامعة بربرة وقلقلة وطَسّ باللي كان وباللي ما كان!
خَلّوا ولاياكم بهمومها!
إيش قلتِ، يا صبية؟
– لو فيه خير ما رماه الطير؟

*تصرخ بهستيرية:*

مين بتقصدي، يا مفعوصة؟

عبد الله؟

*تشرد بذهنها.*

عبد الله.. عبد الله..
مين جاب سيرته؟
ما حدا جاب سيرته!
لا رماني ولا رميته
زمان.. زمان.. كأنّه لا كان ولا كان!

*تنتبه إلى حالها.*

بسْ أنا ما رميتكم، يا حبايبي.
ولا رميت أبواتكم.
وسرارهم في قلبي بير ما له قرار
سِرّي ولا سراركم!

*تُقلّد صوت الرجال.*

– ما حدا قال ها القول، يا حَجّة.

صرنا حَجّة!

«صار شوقي أبا علي     في زمان الترللي»!

أنا هند بنت الفَرّان!

أنا المحجّة!

أنا المزار.

– ما حدا قال: ما فيّ خير؟

بيكون بربرتكم عليّ بما هو أشنع.

يلعن هيك زمان!

بعد ما كنت ملكة الوادي غير المتوَّجة صرت أُم

الروبابيكيا

بيّاعة أواعي عُتُق..

ألله يلعن أبوكم، في ها البلد.

لما تجوعوا بتوكلوا لحومكم.

مثل الدابّة. لما تجوع بتاكل لجامها.

*صوت اقدام تجري على الدرج.*

قلتُ لكم قلبي حاسسني.

إبني؟

*تهرع نحو الباب.*

مالك، يا ولد، بتلهث؟
شو اللي بإيدك يا بشارة؟
رسالة من إبني حسن؟
حسن الصغير، الشاطر حسن.

*تخطف ورقة.*

من الصليب الأحمر؟

*تقرأ في الورقة.*

حسن هون؟!
حسن محبوس؟!
في الجلمة؟!
وأنا قاعدة هون، إيش أسوّي؟

*تتابع القراءة.*

إيش؟ أبعدوه؟!
أبعدوك، ياماه!
ياماه ليه ما خلّوك تكمّل المشوار؟
عجناح الطير كنت جيتك يا ولدي
كان قلبك حاسّك، يا هند.
بس شو اللي عمى قلبك؟
ألله يعمي قلوبهم!

*تصرخ:*

ياماه. شو عملت حتى تكون الحسرة سجني الأبدي
ياماه، يا حسن، شو عملوا فيك؟
ياماه، يا حسني، ليش ما درت بالك على أخوك الصغير؟
ياماه، يا حُسنية، يا ستّ البيت. شو صار فيكي؟
يا حكومة هَدّ حيلك لو حطّ راسه على صدري ولو مرّة واحدة قبل ما تبعدوه!
يا ظالم إلك الله!
أُمكم هند بريئة يا أولادي.
إيدي ما نحطّت على إيد عبد الله ولا إيده.

أشكي همّي لمين واللاّ لمين؟!

*لغط وهمهمة.*

*تتّجه نحو الباب.*

مالكم متجمعين يا اولاد حارتي؟

العرس التغى يا أولاد.

سامعة، يا أُم أحمد، شو صار بجارتك؟

يا أُم بشارة هاي هي البشارة؟

*بهستيرية:*

ما بقي حدا.

روّحوا! وما بقي حدا.

غيري أنا وكنوزي وصبر أيوب؟

*تلم اللحاف عن الأرض وتقعد على السرير وتحتضن اللحاف.*

وعبد الله؟!

مين جاب سيرته؟
عبد الله لا راح ولا رجع.
وعاقبتني بأولادي،
ليش يا ألله؟!

*تغني:*

«راجعون
بالإيمان .. راجعون
للأوطان .. راجعون
راجعون، راجعون، راجعون»!

*تضحك ضحكة اليمة.*

بالإيمان.. راجعون
عيش، يا كديش، تيجيك الحشيش.
بُكره بالمشمش.

*تشهق وتُخفي عينيها بيديها.*

*تحتضن اللحاف.*

خَلّي خبايا اللُّحُف في اللُّحُف
وارميها، يا هند، على المشترين
والمفترين والغايبين والحاضرين
والحاضرين الغايبين.
مثل التّايه في السفينة التّايهة
يحطّ رسالة الإستغاثة في قنينة فاضية.
يسدّ بابها ويلقيها في البحر
على أمل أن ينتشلوها على شطّ من الشطوط
ويكونوا أولاد حلال ويلبوا نداءَه.

*تخرج من صدرها أوراقًا صغيرة ملوّنة.*

كنوزي!
مكنونات صدور لُحفي ودواشكي.
أفتّش الدوشك قبل أن أبيعه
فأجد حزمات من أنوار الصبا.

*تعرض ما لديها وتقف أمام الجمهور.*

عندي رسائل الحب الأول.

عندي قصائد خبّأها فتيان بين أوراق كتب مدرسية.
عندي قلائد تتعلّق بها قلوب من ذهب
وفي القلب الذهبي صورتان:
له ولها.
عندي يوميات بخطوط دقيقة
عن تساؤلات: ماذا يريد مني؟
ما انت فاهمة، يا بنت إِمّها
نظرة أو ابتسامة منّك والسلام عليه.
شعب يموت بحسرته من يوم ما ماتت بناته بحسرتها.
وعندي يوميات بخطوط عريضة
عن عزّة شباب: يا وطن.

*تُردّد أُغنية «وطني» لهارون هاشم رشيد:*

وطني وصباي وأيامي
وطني وهواي وأحلامي
ورضا أُمي وحنان أبي
وثُغا ولدي عند اللعب
يشدو بثُغاء بَسّام
وطني..

*تتوقّف عن الغناء حين تنطلق من الراديو أُغنية سهام شماس: «غاب نهار آخر».*

هل تذكر، يا اختيار؟
كلنا خَتْيَر وما لنا في هذا الأمر أي اختيار.
هل تذكر أبو جميلة
وثوبه المصنوع من خراخيش التنك؟
أنا هند، يا اختيار!
حتى ثوب أبو جميلة حافظتْ عليه.
إنْ عاد فهو له.
وإن لَمْ يعُد عادت جميلة.
عودي جميلة!
مش مصدّقين؟

*تُخرج من مرتبة الدواشك ثوبًا من خراخيش التنك.*

هه!

*تلبسه حول خصرها وترقص.*

«أبو جميلة ضيّعتِ حالي بين الجمالِ
أبو جميلة.
أبو جميلة دا الحب مالي ودا حلالي.
أبو جميلة.
أبو جميلة الحال مايل والعمر زايل
أبو جميلة».

*تصرخ:*

عودي جميلة .. ـة .. ـة .. ـة ..

*تقع على السرير مجهدة.*

أبو جميلة! كان هو الذي بنى حارة التنك. حوّاسة. للفلاحين المطرودين من أرضهم المنهوبة في وادي الحوارث.
حارة التنك، حوّاسة. إيش إسمها الآن؟
تل حنان؟
حنانك، يا رب الجنود!
ما كان أحنّ من أبو جميلة علينا إلاّ قلب الوالدة.

وإن كانت تخوّف أطفالها بأبو جميلة
فأحسن من أن تخوّفهم بأُم رعيدة.

*تردّد:*

«يا أم ارعيدة وارعدي        وخذي هند وابعدي
حطّيها تحت باطك        وسمعيها ضراطك».
أحببنا أبو جميلة وخرخشة توبُه
وأحببنا أُم رعيدة ومطرتها
واليوم، شو بقي؟
إن سمعنا خرخشة حسبناها دبّابة
وإن سمعنا أُم ارعيدة قلنا مدافع!
ورفقة الصبا أشباح
أشباح هايمة.

*تذهب إلى حافة المسرح في مواجهة الجمهور.*

عشرين عامًا وأنا أنتظرهم.
فلمّا عادوا، عادوا أشباحًا هائمة.
راحوا وما طلُّوا علينا.

يأتون مشيًا على الأقدام.
يأتون عبر الجسر.
يعبرون أزقّتنا في صمت.
وأنا أنتظرهم.
راحوا وما طلّوا علينا.

*تعود إلى النافذة. تُلقي نظرة ثم تعود إلى الجمهور.*

أشباح هايمة!
غريب وواقف أمام باب مسَكّر
لأْ، مش شحّاد.
ولا بيّاع متجول.
مالك، يا عمي؟
عطشان، يا أُختي.
– «إيمالي! ما روتسي هعرڤي هزيه»؟ (أُمّاه! ماذا يريد هذا العربي؟)
– «أل تِفتحي حموداه شلي» (لا تفتحي له يا حبيبتي)
كان البيت بيته.
فيمضي في صمت!

تعود إلى السرير وتبكي.

يمضي في صمت.
الأشباح الهائمة.
غريب وبعينيه حكاية قديمة.
يا أهل الدار!
بعضهم يستقبله بابتسامة شفقة.
وفيه بيت انفتح عا ابتسامة شقاء.
عرفوه والاّ خَمّنوا؟
كان البيت بيته.
– «إيمالي! هعرفْي بوخيه»! (أُماه! العربي يبكي!)
كان البيت بيته.
يمضي في صمت.
غريب ومستحي.
لا بدُقّ على باب
ولا بفْتحوا لُه باب.
بَسْ بطلّع يمين وشمال
بركي شاب أسمر يمرّ في الوادي.
تسمح، يا ولدي؟
– هل كان هون بيت من حجارة مكحّلة؟

– كان، يا ما كان، يا حاج!

– كان، يا ما كان، يا حاج، ولكن عظامه صارت مكاحل.

كان البيت بيته.

أو بقول له:

ولدت بعدها، يا خال!

وأبوك، يا تُقْبُرْني، ليش ما خَبّرك؟

– أبوي بشتغل في بير السبع ولا يعود إلاّ مرة في الشهر.

وإنتِ، يا مقصوفة الشعر؟

– أبوي عاطل عن العمل وأنا من عيلة مستورة.

وليش ما بيحكي لكم؟

– من يوم ما تعطل وهو صافن متمدِّد وعينيه في السقف وما بيقول إلاّ أُفّ أُفّ!

وإنتِ يا بنت يا إم الفناتش؟

– أبوي سافر إلى كندا حتى يدبِّرْنا وبعدين يسحبنا.

وسحبكم؟

– لا خبر ولا علم!

وإنت، يا شابّة، يا منزّلة عينيها في الأرض.

– أبوي ما بيجي عالبيت إلاّ ليضرب إمي وياخذ صيغتها.

شو؟ بتعاطى الحشيش؟

– هيك بيقولوا.

لاقيلك عريس!

– من وين، يا حسرتي! ما شايفة حواليّ غير عاطلين عن العمل.

شغّليهم عندك.

– فيه واحد عريس أجاني وقال: إبشري!

تسجّلت في مكتب العمل وباقبض معاش عاطل عن العمل.

تزوّجيه!

– وبعد ست أشهر بصيع.

إلبسي ثوب السُترة وخلّيه يربّي دقنه

والرِّزق على الله!

– بس والدي حشّاش.

أحسن وأحسن. يربِّي دقنه ويحمِّل ربنا جميلة.

– هيك فكرك؟

وما سمعت عن ملكة الوادي غير المتوّجة؟

صمت!

صمت القبور.

لَيْكون الهدوء الذي يسبق العاصفة؟

لَيْكون شويّة تأنيب ضمير؟
اللّه يلعن هيك زمان!
صرتم تبربرون عَلَيّ وتسمّوني أُم الروبابيكيا.

تنادي:

أواعي عُتُق للبيع. طناجر عُتُق للبيع. نحاس مصدّي للبيع!
أشتري المتاع القديم، المتروك والمنهوب.
أصلحه وأبيّضه وأبيعه.
ولكنني لا أبيع كنوزي.
أنا هند، يا بشر!
أنا هند، يا غجر!
بيتي ما له باب
ولكنّه قايم
وأنا قاعدة فيه
وإن نسيوني أنا ما نسيتهم.
زوجي أخذ أولادنا ورحل
وأنا ما رحلت.
قالوا عنّي: يا مجنونة يا عاشقة.

ما رحلت.

قالوا عني: خاينة.

ما رحلت.

ولما جنّ الليل تسلّلوا إلى بيتي على حساب إني

خاينة.

خاينة مع مين يا بَقَر؟!

هند، بنت الفرّان، بنت العيش والملح،

خاينة؟!

تتشحططوا في بلاد البَعْر

وتقولوا عن هند خاينة؟!

عشرين سنة وسفينتي مُبحرة نحو كنوز الملك سليمان.

لا وصلت ولا بقي حطب إلاّ أكلته النيران.

كل شيء بعته سوى كنوزي.

كنوزكم.

تصرخ:

عودي جميلة..

وهذه النيران أحرقت شعري

فشاب.

إلاّ أن قلبي بقي أخضر.
هَبْلا..
الله يسامحك، يا هند،
خلقتِ هَبْلا وتموتي هَبْلا.
ليش تركني إبن عمي للضبوعة؟

*تغني:*

«يا ابن العم يا ريتك للضبوعة
بنات العم أخذوهن اسبوعة
يا ابن العم يا كومة كنايس
بنات العم أخذوهن عرايس
يا ابن العم يا كومة ترايب
بنات العم أخذوهن غرايب».

*تأخذ اللحاف عن السرير. تفرشه على الأرض وتقعد امامه.*

كان، يا ما كان، وكنتم تتسللون إلى هذه
الغرفة عبر الدرج.

فأُقدم إِليكم القهوة وابتسامة لطيفة.
من يومها وأنا أبحث عن الكنوز في الدواشك
أبيع الدواشك بلا روحها.
وأحفظ ماء وجهي.
وأحمل إِلى المسجون منكم الخبز المحمّر.
أنا هند، بنت الفران.
خاينة؟!
كنت أبيع ما وقعت يدي عليه من سجاجيد
وكراسٍ ومرايا
وأدفع نفقات المحامي عنكم.

*تاخذ الدفّ من حيث هو معلّق على الحائط.*

شايفين هذا الدفّ؟

*تنقر عليه.*

دفّ زنوبا النوريّة بصحّ وصحيح.
بهالغرفة رقصت ليلة سقوط حيفا.

*تنقر على الدفّ.*

رفعت راسها هيك..

*تفعل.*

وضربت الأرض بكعبها، هيك.
وصاحت: إِياكم والرحيل! يكفي الأرض من عليها من
نَوَرْ!
وصارت تلفّ وتدور حول نفسها.

*تفعل.*

مثل عمود من لهب.
وباتت الليل عندنا.
ولما طلع الصبح وأجوا يوخدوها
متسللة..
خبّأت دفّها تحت المخدّة وهمست في داني: إِبقِ معه!
ابني متسلل؟!
زنوبا متسللة؟

لأْ ! زنوبا متسلْحة.
وسلاحها دفّ

*تنقر عليه.*

وكعب كندرتها!

*تضرب الأرض بكعب حذائها.*
*تعيد الدفّ إلى مكانه وهي تتمتم:*

زنوبا ما رحلت
قالت: نكبة تشريد واحدة بتكفيني.
وما بيطلع فجر على الوادي
إلاّ وبشوفها تشاورلي.

*تأخذ الدربكّة من حيث هي معلّقة على الحائط*
*تضرب بأصابعها على الدربكّة.*

ما كانت تصلح زيانة شاب من حارتنا في ذلك الزمان
إلا إذا جاءت هند بدربكّتها وحَمّت السهرة.

كان عندنا فرن، أخدوه.
وبيتنا كان مضافة الحارة
كل عرس وإلنا فيه قرص.
والميتم كمان.
أخدوه
وأنا قاعدة بالإيجار.
إلاّ الدربكّة.
ووعدي أن أُزيّن أولادي في بيتي.

*تضرب على الدربكّة وتغني:*

«زَيّنُه، يا مزيِّن ونــاولــه لأمــه
دمعته هالغالية نزلت على كُمُّه
زَيّنُه يا مزيِّن تحت فَيّ التّين
يا ميمته فرحانه وقلبها حزين
زَيّنُه يا مزيِّن تحت فَيّ عراق
يا ميمته فرحانة وقلبها مشتاق
زَيّنُه يا مزيِّن بمواس الذهب
لا توجِّعْ لي العريس عَمِنُّه عَزَب».

تغني وهي تبكي:

«آه يي ها وجيتك من الهيش
آه يي ها جلبوط ما عليك الرِّيش
آه يي ها وعَلّمتَك الزقزقة والطير والتعشيش
آه يي ها ومن بعد ما كبرت وصار عجناحك ريش
آه يي ها طرت وراح تعبي عليك بخشيش».

زغرودة.

*تقع على السرير.*

*تشرد بذهنها.*

حتى على زيانتك بتعزمني، يا عبد الله؟
ووالدتك أصرّت إلا أن أغني في زيانتك!
كنت أغني وأشرق بدمعي، يا عبد الله.

*صوت خطوات على الدرج.*

من هناك؟
عبدالله؟

*تخبّئ رأسها بطرف اللحاف.*

مالكم ومالي ومين عبدالله؟

*تصرخ:*

يا بتطلع، يا بتنزل.
أما أن تتركني لا مطلّقة ولا معلّقة
فحرام.

*تقوم إلى فتحة الباب*

*تنظر خارجه ثم تعود إلى الجمهور.*

ما فيه حدا..
وما كان الخبط إلاّ في راسي.
في قلبي خبط وقعاتك على الدرج
يا عبد الله يا الولد الجعدة.
ما أسمع وقع خطوات على الدرج إلاّ وأقول:
أجا. أجا الولد الجعدة.
سلّموا لي، يا ناس، عليه.

وقولوا له: هند الغالية،
ترعى وزّ وتمشي غزّ
ولا تعيش عيشه مايلِه.
سلّموا لي عليه.
عبد الله!
كان أول السُمّار في بيتي
وكان آخر المصبّحين عَلَيّ بالخير
- تصبحي على خير، يا هند.
- وإنت من أهله، يا عبد الله.
لا! لم يبت في بيتي ولا ليلة!
حبِّيته؟
مالكم ومالي؟!
حبِّيته مثل ما حبّيتكم كلكم.

تبتسم في حياء.

ويمكن زيادة شوَيّ.
لأ! ما كانش جبان.
أسد، والله، أسد.
ولكنه مثل كل رجالنا: حمار..

يحسبون بيت المهجورة لا يصلح إلاّ للزيارة العابرة.
مالكم وماله؟

*تقعد على الأرض وتحرِّك يديها في ما يشبه الرقص.*

إللي فات مات مات
وما خلّف إلاّ بنات

*تجهش في البكاء.*

الحق مش عليه
الحق على هند اللي هجرها أهلها وما هجرت شانهم.
من صغرنا وإحنا لبعض.
هند للولد الجعدة
والولد الجعدة لهند.
بس لا أنا قلت له
ولا هو قال لي.
واحنا صغار كنت أقلِّد زنوبا
وهو السعدان:
هوب إعجن مثل ستّك العجوز

فيعجن مثل ستُّه العجوز
هوب تبختر مثل معلّم المدرسة
فيتبختر مثل معلّم المدرسة.
وما نلعب الغُمّيضة إلاّ ويتخبّى في القرنة اللي أنا متخبّية فيها.
وما يقبل يلعب دُبّ أبو زنوبا إلاّ معي.
وما يركّب غيري على ضهره.
وما سمعنا عن فصل الإناث عن الذُّكور
إلاّ في هذا الزمان.
وكنّا نرقص ونغنّي:
«شتّي، يا دنيا، وزيدي
بيتنا حديدي
عمّي عبد الله
كسر الجرّة
قتله سيده
نيّمه برّه
هيه..»
وكان اسم الولد الجعدة عبد الله.

تروح وتجيء.

ولـمّا كـبرت زوّجونـي .
وأنـا طالعة سـمعته يهـمس :
– بِسْت ! روحـي . الله يسـهّـل عـليكِ .
ولـمّا رحلوا سـمعت هـمسته مرة أُخرى :
– بِسْت ! لا تروحـي !
ما رحت، يـا عـبد الله .
ولا إِنـت رحـت .
ولـكن، لـيش عـاملتني يا عـبد الله كـما لـو أنـني بـنتك ؟

*تعود وتقعد على الأرض وتضع أمامها دوشك تفتحه وتبعثر صوفه .*

وجـاء يـوم .
وجدني على ها القعـدة وصوف دوشك مبعثر أمامـي ورسالة فـي يدي وأنـا أبـكـي
فـسألـني عـن الـسبـب .
فـقلـتُ لـه : تـذكـرت أولادي !
– أولادك ؟ وهـذه الرسـالـة ؟
كـذبـت عـليه .

وقلت: واحدة من رسائل كانت صبيّة ترسلها إلى فتاها فأخفاها في فتحة الدوشك. أو تكون لم تسلمها له فأخفتها في فتحة الدوشك.

- هاتي الرسالة لشوف!

مالك ومالي؟

لا إنت زوجي ولا إِنت أبي ولا أخي

أخفيتها في صدري.

فمدّ يده ثم أعادها خجلاً.

- هاتي الرسالة!

خذها بيدك!

فخرج غاضبًا ومن يومها لم يَعُد.

وتزوّج مثل كل الناس.

ومثل كل المتزوجين لم يعد يزورني.

لا في ليل ولا في نهار.

ماذا أفعل حين أبقى لوحدي

يا عبد الله؟

كنتم إذا دخلتم في الشِعر دخلتُ فيه.

كانت الرسالة لك

يا تيس يا حبيبي.

شعرًا كتبتُه لك.

كمان أنت تخونني يا عبد الله وتظن بي الظنون؟!
أتذكر، يا عبد الله،
حين كنت تعرج ونحن نُردِّد وراءك؟

*تمرح على المسرح وهي تعرج.*

«يا ستي العرجا العرجا
يا مفتاح الطبنجا
حَطّيتُه ورا الصندوق. أجا خالي سرقه.
سرقه ما سرقه.
لبّسني من حلقه
حَلَقه شَقلي بَقلي
حَلَقه طيّر عقلي.
يا بنت الملوك
جايين ينكحو..

*تتلعثم وهي تضحك.*

جايين يخطبوكِ
من إمك وأبوك

عا باب المدينة
كعكة ولا تينة
كعك الشام غالي
هيك وهيك لخالي..

*تتلعثم وتضحك.*

تسلم ذقن خالي
خالي في البرِّية
عم ياكل تمريّة
قلت له طعميني
قال لي ضربة سكينة
سكينة حمرا حمرا مثل الجوخ بالجمرا
هيه.. »
– بوليس..
فنهرب من وجه البوليس ونتخبّا في المُغُر
وفي السراديب المهجورة.
وإن ركضت قبلك ركضت وراي
وإن ركضت قبلي ركضت وراك
وما تخبينا إلاّ سوا.

غُمّيضة
ولكن بصحّ وصحيح.
فلماذا تركتني أتخبّا الآن لوحدي؟
كمان أنت تُخَوِّنني، يا ولد يا جعدة، وتظنّ بي الظنون؟!
لم أعد لوحدي يا عبد الله
يا ولد، يا جعدة!
فتساءل: مع كنوزك؟
فهتفت: بل مع أصحابها
إنهم يعودون، يعودون.

*وقع خطوات على الدرج ولكنها لا تتوقَّف هذه المرَّة.*

هُس!
ها المرّة الخطوات لم تنقطع.

*تغني وترقص:*

حسّ الفرّادي لَفَت
ها هو ها، ها هو ها!

*تصفن:*

وإن طالبني بالرسالة؟
لافرش تحت رجليه رسايل
بعدد الليالي اللي قعدت فيها أنتظر خطواتك.
من يومها وأنا لك، يا ولد يا جعدة.
ولأزغرد له ولأزغرد لحالي:
« آه يي ها ويا مرحبا بمن طَلّ
آه يي ها يا مثل الهلال لَهَلّ
وخَلّي عداه وراه مثل الورق عالتَلّ»

*تطلق زغرودة.*

*تتقدم نحو الباب.*

ما له صَفَن؟
ما له قطعنا بنصّ البير؟
ما فيه حدا..
ما فيه غير هند وكنوزها وذكرياتها

*تقف أمام الباب متردّدة.*

بس ما يكونش هبلا، إنت، يا هند.
يا الله! أموت هبلا ولا أموت بحسرتي.

*تطلّ من الباب وتنادي:*

يا طالع إلينا أُدخل علينا.
مين ما تكون أُدخل علينا.

*تنتحي جانبًا ليدخل داخل غير مرئي.*

يا هلا ويا مرحبا باللي طلّ
طوَّلت الغيبة يا عبدو.
تفضّل، تفضّل. البيت بيتك.
مالك ملخوم، يا عبدالله؟
مطرحك أمان يا وليف العمر.
طلوع الدرج أتعبك؟
والأ العمر، يا اختيار؟

*تُقَرّب كرسيًا.*

أُقعد . أُقعد اتريّح .
كان مشوارك بعيد يا مرَوٍّح .
تلهث من التّعب أم من الحنين
أم خايف؟
مالك واقف زيّ الميدنة؟
تطَلّعْشْ لوَرا .
امرأة لوط ما انسخطت عمود ملح
إلاّ لمّا تطلّعت لوَرا .
خايف من سخطة مين يا عِشْرة العمر؟
ما يكونش خايف منهم!؟

*تهرع نحو رفّ الكتب وتأخذ كتاب « رسالة الغفران » للمعرّي .*

هل تذكر هذا الكتاب؟
« رسالة الغفران » للمعري التي أعدتم طباعتها
وكنت تقرأ لنا حكايات منها وتشرح وتفسّر

*تقرأ :*

«عاشوا كما عاش آباء لهم سلفوا
وأورثوا الدّين تقليداً كما وُجدوا
فما يراعون ما قالوا وما سمعوا
ولا يبالون - من غيٍّ - لمن سجدوا».
(ص ٢٥٧)

رويدك، يا ابن آدم:
«رويدك قد غُرّرْتَ وأنتَ حُرٌّ
بصاحب حيلةٍ يعظُ النساءَ
يُحَرّمُ فيكمو الصهباءَ صُبحًا
وَيَشربُها على عَمْدٍ مساءَ
يقولُ لكم: غدوت بلا كساءٍ
وفي لذّاتها رَهَنَ الكساءَ».

فخايف منهم ليه، يا أهبل؟!
أخيرًا استهديت ووصلت لبرّ الأمان.
بيتي شجرة حور من أشجار الجنّة
وأنا حوريّة من حوريات الجِنان
هل تذكر؟!

*تقرأ:*

«من أنت، يا عبدالله؟ فيقول: أنا فلان إبن فلان.
فتقول: «إني أُمَنَّى بلقائك قبل أن يَخْلُقَ الله الدُّنيا بأربعة آلاف سنة».
بلاش ها الكشرة، يا عبد الله!
مالك ساكت؟
كان لسانك لا يفوت حلقك.
شو اللي ربط عقدة لسانك؟
هل تذكر؟

*تقعد على السرير وتشير له بيدها.*

تعال أُقعد جنبي.
أي تعال!
كنت تستحي منهم؟
ما بقي حدا.
ما فيه حدا..
أي تعال ها المرّة.
هات أبوس إيدك!

*تطأطئ رأسها كما لو أنها تُقبّل يدًا غير مرئية.*

بلاش تسحبها، ها المرّة، يا عبد الله.
ما أنا تعاقبت على خطيّة ما عملتها إلاّ بالحلم
فليش ما نعملها بالعِلِم
لا حدّ شاف ولا حدّ دِري!

*تتوسّل:*

مش الحق عَلَيّ، يا عبدالله.
صُنْت شانهم وضيّعت عمري.
هل تذكر؟
أنت اللي كنت تؤكد أنهم راجعون.
زوجي وأولادي.
وتوّجت نفسك حارسًا على ما خلّفوه وراهم.
لَيْكون حاسبني مسجد أو كنيسة
أو مقبرة.
أو خارطة محفورة في نحاس من الميّ للميّ.
أنا هند يا وليف الصِّبا
من لحم ودم!

بنت آدم يا بني آدم.
ابتسم!
وبلاش هالكشرة.
ابتسم!
كنت تضحكنا وضحكتك كانت تُضحكنا.

تُردّد:

« ألا، يا صَخْرُ، إِن أبكَيْتَ عيني
فقد أضحكتني زمنًا طويلاً ».

تريدني الآن أن أضحكك؟
حاضر يا سيدي.
من عيني الاثنتين يا أغلى من نور عيني:
وين سَرَح العجّال؟
على العقبة.
ما أحلى الكفّ عا الرقبة.
تعال أُقعد جنبي لأحكي لك حكاية إبريق الزيت.
أحكي لك حكاية بريق الزيت؟
– آه!

آه والا مش آه، أحكي لك حكاية بريق الزيت؟

– لأ!

لأ والاّ مش لأ، أحكي لك حكاية بريق الزيت؟

– بَسْ هَبْلَنِة؟!

بس هَبْلَنِة والاّ مش بس هَبْلَنِة، أحكي لك حكاية بريق الزيت؟

– هوه!

هوه والاّ مش هوه أحكي لك حكاية بريق الزيت؟

*تنكفئ على السرير وتبكي.*

تبكي يا عبدو؟

تبكي دموع الندى والاّ دموع الندم؟

*تخرج من صدرها شاشة حريرية بيضاء.*

خلّيني أمسح دموعك.

*تنزل عن السرير رافعة يدها بالشاشة وتتقدم خطوة إلى أمام.*

مش عيب يا ولفي.
لا تمشي يا جملي.

*تلاحقه وهي تردِّد:*

جمل ماشي عالماشي
جيت أضُمُّه خطف شاشةِ.

*تدور في أنحاء المسرح وهي تُردِّد:*

جَمَل ماشي عالماشي
جيت أضُمُّه خطف شاشةِ.

*تقف مذعورة.*

اخطفني يا عبدالله.
لا تتركني لوحدي!
لوين يا عبدو؟

*تركض نحو الباب وتطلّ منه.*

لا سلام ولا كلام؟
ولا بوسة؟
ولو على الخدّ يا ابن حارتنا؟

*صوت خطوات تنزل على الدرج.*

هيه يا عبدالله!
خلّيني أكمل لك حكاية بريق الزيت.
أبوس رجليك لا تتركني لوحدي.
الحكاية ما خلصت!

*تذهب إلى الرفّ وتأخذ الجرس وتعود إلى الجمهور.*

حكاية إبريق الزيت قديمة
قديمة.
وما خلصت وقد لا تخلص.

*تنادي وتقرع بالجرس.*

فيا أهل البلد!

يا أهل البلد!
الحاضر خاين والغايب بطل!
بُكره من الصبح منع تجوّل
ورصاص مثل زخّ المطر
وبعد بُكره من الصبح إضراب
ورصاص مثل زخّ المطر
واللي ينفد منهم بُكره، بعد بُكره منخلِّص عليه!
حكاية إبريق الزيت.
أحكي لكم حكاية بريق الزيت؟
- لأ!
لأ والاّ ما لأ، أحكي لكم حكاية بريق الزيت؟
- «لُو»! (لا بالعبرية)
«لُو» والاّ ما «لُو»، أحكي لكم حكاية بريق الزيت؟
بلاش؟
طَبْ بلاش.
ما هي بتحكي نفسها بنفسها من جيل لجيل.

*تقرع الجرس.*

يا أهل البلد، يا أهل البلد!

حكايتي ما انتهت
والعمر بعد فيه مَتَكِه
وبعد عندي كنوز
وعندي ذكريات
وعندي اولادي
وحكايات.

يا حبايبي.
بسّ سلّموا لي عليه
سلّموا لي عليه
وقولوا له:
هند الغالية
ترعى عزّ وتقعد غزّ
مثل جبالنا العالية.
زاروني والاّ ما زاروني
أنا قاعدة.
وهاي قعدة.

*تتربّع على الأرض وتقيم ظهرها عاليًا.*

(ستار)

# إميل حبيبي

## جدل الخصوصيّة والإبداع

يستحضر اسم إميل حبيبي على الفور الأديب الأبرز من بين الآباء المؤسّسين للرواية الفلسطينية المعاصرة، لا بمعنى الأسبقيّة الزمنيّة بل بالمعنى الأعمق للتأسيس، الذي يُحيل إلى فنّية الرواية ذاتها، شكليًا وروحيًا. وذلك فضلاً عن كونه يمثّل تيارًا أساسيًا في الرواية العربية المعاصرة، لحمته وسُداه تطعيم الشّكل الروائي الحديث بعناصر سرديّة وغير سرديّة مجتلبة من التراث العربي والحكايات الشعبية وأشكال السّرد الشفوي.

منذ عمله الإبداعي الأول «سداسيّة الأيام الستة»، الذي ظهر بعد عدوان حزيران / يونيو ١٩٦٧، وحتى «خُرَّافية سرايا بنت الغول»، التي ظهرت في ١٩٩١، وما بينهما من أعمال، استطاع إميل حبيبي أن يشيد بناءَه الروائي على موادّ متنوّعة متغايرة وأن يؤالف نصّه في دوائر متقاطعة وأن يجعل الكتابة الأدبية الساخرة تُحلّق في مناطق لم تكن مطروقة.

المتابع لأعمال إميل حبيبي على مدار أعوام إبداعه كافّة، سيجد أن هذا الكاتب الفلسطيني الكبير لم يتخلَّ عن أُسلوبه الذي ربّما بلغ ذروته في «المتشائل»، ومن خلاله شقّ طريقًا جديدة الجِدّة كلّها للرواية العربية، لا تزال تغري العديد من النُّقاد والدّارسين بالمزيد من البحث والتقصّي في أدبه المتكامل وأسلوبه المخصوص.

رحل إميل حبيبي في الأول من أيار عام ١٩٩٦ عن ٧٥ عامًا (مواليد ٢٩ آب ١٩٢١). وخلال حياته العريضة ملأ الكثير من المواقع بجدارة لافتة. وفي جميعها ترك علامات فارقة على مسيرته، التي قد يوجز أحد جوانبها الأكثر إثارة العنوان الزخم: جدل الخصوصية والإبداع.

فقد كان أديبًا ومسرحيًا وكاتب مقالة وقائدًا سياسيًا وابنًا بارًّا لشعبه العربي الفلسطيني. كما كان العاشق الأكبر لمدينة حيفا – مسقط رأسه.

إبداعات إميل حبيبي في مختلف المضامير السالفة، التي يمكن من خلالها الاغتراف من مذاق الكينونة الفلسطينية عمومًا وفي الدّاخل خصوصًا، حافلة ضمن أشياء أُخرى بتوصيفات للمكان الذي عاش

تبدُّلاته في منعطفات المصير الإنساني. ومن الطبيعي أن تكون متَّصلة اتصالاً وثيقًا بمدينة حيفا، حيث اختار أن يرقد فيها رقدته الأبديّة داعيًا، في وصيّته الغنيّة بالدلالات، إلى نقش عبارة «باقٍ في حيفا» على شاهد قبره عند سفوح الكرمل وعلى مقربة من زرقة البحر.

حاز إميل حبيبي على جوائز عديدة عربية وعالمية، لعلّ أبرزها «وسام القدس» (١٩٩٠)، أرفع جائزة فلسطينية. وشارك في العديد من المؤتمرات والمهرجانات الثقافية العربية. واختير في ١٩٩١ بوصفه الكاتب الأهم في العالم العربي من قبل مجلة «المجلة» اللندنية. وكان عضوًا في الكنيست (البرلمان الإسرائيلي) عن الحزب الشيوعي في السنوات ١٩٥٣- ١٩٧٢، وتولّى رئاسة تحرير صحيفة «الاتحاد» في السنوات ١٩٤٤- ١٩٨٩، حيث عمل على إنجاز تحويلها إلى جريدة يوميّة. وقبل وفاته أسَّس «مشارف»، المجلة الثقافية العربية الصادرة في حيفا، سوية مع إنشاء «دار عربسك للنشر».

أهم كتبه الأدبيّة المنشورة: «سداسية الأيام الستة» (١٩٦٩)، «المتشائل» (١٩٧٤)، «لكع بن لكع» (١٩٨٠)، «إخطيّة» (١٩٨٥)، «سرايا بنت الغول» (١٩٩١)، و«أم الروبابيكيا» (١٩٩٢)، و«سراج الغولة» النص الوصيّة المنشور بعد وفاته.

تُرجمت أعماله إلى العديد من اللغات بينها الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية والإيطالية، بالإضافة إلى اللغة العبرية.

رغم الكثير الذي كتب عن تجربته الأدبيّة، ما زالت هذه التّجربة تستقطب القرّاء والنُّقاد والباحثين العرب ومن العالم أجمع، بالتطويرات والتجديدات التي أدخلتها على الرواية العربية، وبالتوازيات التي أقامتها بين شخصيّاتها وشخصيّات روائية أُخرى في الرواية العالمية، وبما أضافته على أشكال السَّرد العربية التراثية بعد الاستفادة منها، وفوق ذلك كلّه بما أحدثته من أثر متميِّز وبصمة خاصة على الكتابة الأدبية العربية، شكلاً ومحتوىً.

إصدار آثاره الكاملة بعد عشر سنوات على رحيله يتيح لكل راغب إمكانية الإطلالة من جديد على العالم المدهش والممتع الذي بناه إميل حبيبي وظلّ يشكّل منارة تنير الدَّرب أمام الأجيال العربية وأمام الإنسانية جمعاء، بعد وفاته، كما كانت الحال في حياته.

(النّاشر)



ISBN 965-7388-05-8